

العقاد

بقلم جبار النفاك



الى الابتعاد عن روح العصر ، وعن حضارة القرن العشرين .

اي ان العقاد اقنع القارئ العربي بالحضارة المصرية ، من خلال الثقافة العربية نفسها ، وهذا في الواقع مجهود كبير ضخم لم يكن يفوى عليه الا غفل في اتساع عقل العقاد وعمقه .

على ان العقاد لم يكتف بميدان التاريخ الاسلامي . فدخل ميدان الادب القديم ، وكان له في الادب القديم نظرات لامعة ذكية ، استخدم فيها المناهج المصرية ايضا بعد ان عرفها وهضمها واصبح قادرا على استخدامها قدرة رائعة عميقة . فكتابه عن « ابي نواس » يقوم على اساس من التحليل النفسي ، انه يستخدم فكرة « الترجسية » المعروفة في علم النفس . وكتابه عن ابن الرومي يعتبر من اثنى الكتب النقدية التي عرفتها المكتبة العربية ، لقد سجل فيه العقاد قدرة عالية في فهم شخصية الفنان من شعره ، واستطاع في هذا الكتاب المتنازع ان يعيد الحياة الى شاعر قديم ، بحيث نستطيع بعد قراءتنا لكتاب العقاد ان نعاش ابن الرومي ونحس به وكأنه كائن حي يعيش في عصرنا ويتفصل بتجاربنا المختلفة . لقد نفّض العقاد عنه غبار الماضي . وخلق منه كائنا نابضا بالحياة ، بعد ان كان شاعرا مغمورا في صفحات الادب القديم ، فابن الرومي من اسوأ الشعراء حظا ، حيث لم يحظ باهتمام كبير في الماضي ، حتى جاء العقاد واعاده الى الحياة .

اذن فقد ساهم العقاد مساهمة واعية كبيرة في احياء الفكر الكلاسيكي العربي (في الادب والدين والحضارة) ، والبس هذا الفكر ثيابا عصرية مقبولة ومؤثرة . واذا كنا ننادي اليوم بالقومية العربية ، ونعلم تمام العلم ان اساسا هاما من اساس القومية العربية يتمثل في اللغة والتراث الفكري المشترك ، فيجب ان نتعرف ان العقاد قد ساهم مساهمة جبارة في احياء التراث القديم ونفّض الغبار عنه ، وساهم مساهمة جبارة في جعل اللغة العربية لغة عصرية ، وفي جعل الثقافة العربية ثقافة عصرية . . . ولولا العقاد وبعض ابناء جيله لما تجدد شباب اللغة العربية ، ولما تجدد شباب الثقافة العربية ، ولعشنا حتى الان في ظلام شيخوخة الفكر العربي واللغة العربية ، كما كان الامر في القرن التاسع عشر .

من هنا نستطيع ان نقول ان العقاد وان لم يدع الى القومية العربية دعوة مباشرة قد ساهم مساهمة قوية في تحقيق الدعوة القومية ، عن طريق كتبه وجهوده الفكرية ، وذلك عندما ساهم اكبر المساهمة في اقامة اساس متقدم صلب للفكر العربي واللغة العربية . واذا التفتنا الى دور العقاد في النقد الادبي وجدناه دورا هاما لامعا ايضا ، وخاصة في نقد الشعر ، فقد بدأ العقاد حياته الادبية والشعر في مرحلة جمود وركود ، لقد كانت « القيم الكلاسيكية » مسيطرة تمام السيطرة على الشعر في ذلك الوقت ، وكان الشاعر في الاغلب هو شاعر المناسبات ، فالقصيدة تكتب في الرثاء والتهنئة ، وتكتب فسي الاعياد الوطنية والاعياد الدينية وهكذا . . . وجاء العقاد فننادى بدعوة واضحة محددة هي العودة الى النفس الانسانية ، فالتجربة النفسية

مات عباس محمود العقاد يوم الاربعاء 11 مارس سنة 1964 . وقد مات المفكر الكبير وعمره خمسة وسبعون عاما قضى منها اكثر من خمسين سنة وهو يحمل القلم ، ويمارس مهنة الفكر . وقد ترك العقاد وراءه ما يقرب من ثمانين كتابا في مختلف فروع الفكر والمعرفة والادب . ونحن اذا كنا قد هاجمنا العقاد اكثر من مرة في هذا المكان ، فليس معنى ذلك اننا ننكر عليه قيمته ودوره الالامع في تاريخ الفكر العربي ، وانما كنا ننكر عليه دائما عناده المر في مواقفه الفكرية ، فقد كان قاسيا صارما في احكامه ، لا يسمح لاحد ان يختلف معه او يقف في وجهه او يجرأ على من ارأته .

ولكن هذا كله لا ينفي ان العقاد كان ركنا ضخما من اركان الثقافة العربية . لقد بدأ العقاد الكتابة سنة 1910 تقريبا ، وكانت الثقافة العربية حبيسة الكتب الصفراء ، وكانت هذه الثقافة بعيدة كل البعد عن ثقافة الغرب المعاصر ، واستطاع العقاد ان يقوم بدور منهل في ربط الثقافة العربية بالثقافة الغربية ، فادخل المناهج العلمية الحديثة البناء ، واستطاع بذلك ان يغير الموقف الفكري عند العرب . . . استطاع ان يناقش قضايا التاريخ الاسلامي بعقلية رجل متحضر معاصر ، وبذلك اصبح حديثه مقبولا مقروءا مؤثرا على العقول ، كل ذلك بعد ان كان الذين ينظرون الى التاريخ الاسلامي اما مجموعة من الذين يقدسونه ، ويقبلونه كما جاء اليهم بلا تمحيص ولا بحث عن البرهان واليقين ، وهؤلاء كانوا بدون شك مجموعة من الجامدين الذين يساهمون في تعطيل العقل العربي والوقوف به عند حدود قديمة عتيقة . . . هذه المجموعة الاولى كان يقف الى جانبها مجموعة اخرى هي المجموعة التي ترفض التاريخ الاسلامي وتعتبره نوعا من الجاهلية الحضارية التي يجب ان ننكرها ونتخلص منها اذا اردنا ان نعيش في القرن العشرين .

واستطاع العقاد ان يتخلص من جمود العقلية القديمة ، واستطاع في نفس الوقت ان يتخلص من الانكار المطلق عند اصحاب العقلية العصرية المتطرفة ، هؤلاء الذين اردوا ان ينقطع عن الماضي تماما ونصرف عنه .

وبذلك اعاد العقاد - ومعه بعض ابناء جيله الالامع امثال طه حسين - نوعا من الاتصال بيننا وبين الماضي ، وهو نوع جديد ذكسي اصيل ، فهو اتصال يساعد على الاستمرار ، واتصال يساعد على التقدم في ميدان الحضارة .

ان كتاب العقاد عن « محمد » مثلا ، يساعدنا على ان نفهم عبقرية النبي ، ولكنه الى جانب ذلك يفتح امامنا افاقا جديدة لكي نعرف كثيرا من العلماء الغربيين ، ذلك لانه استخدم احدث المناهج المعروفة في تحليل الشخصية الانسانية ، في دراسته للعبقرية المحمدية . ولقد لاحظت في الفترة التي قضيتها في قريتي ان المثقفين في الريف الذين يقرأون العقاد هم الذين كانوا يدفعون باولادهم الى التعليم المدني المعروف ، بينما كان الذين يقرأون مصطفى صادق الرافعي وامثاله هم الذين يرضون على ابنائهم تعليما كلاسيكيا دينيا شديدا التعقيد يؤدي بهم في النهاية

موضوعي هادىء وعلمي . بل كانوا متحيزين ضده . مما اثار ما فسي طبعه من عنف وحرارة ، واصبح حانقا على اليسار العربي بجميع فروعه، حتى اليسار الوطني المعتدل ، الذي يمثل معظم الجيل الجديد مسن الكتاب في مصر .

والان وقد مات العقاد ، واصبح حقيقة من حقائق التاريخ العربي، يجب ان نقول انه كان مفكرا عظيما لاما شديد الخصوبة والفزارة ... وان فكره الفزير الخصب كان مليئا بما يستحق البقاء والحياة، وكان يحتوي على جانب اخر خاطيء ... ولكن اخطاء العقاد لا يمكن ان تبطل في اخر الامر ميزاته الحقيقية العظيمة . لا يمكن ان تقف في وجه اناره الكبيرة في ميدان الفكر العربي . انها اخطاء طبيعية نتجت من ظروف تكوينه النفسي المليء بالعناد والثقة بالنفس ، ونتجت ايضا من طبيعة المرحلة الطويلة المليئة بالمتفجرات الفكرية والاجتماعية والتي عاشها بكل تفاصيلها وتأثير بها ... لقد ظل العقاد يكتب اكثر من خمسين سنة متصلة . اهتز فيها المجتمع العربي هزات كبيرة عنيفة ، واهتمت فيها العالم نفسه هزات كبيرة عنيفة ، لقد كتب على مصباح الفاز، وكتب في ضوء الكهرباء . وكتب ومصر ليس فيها سيارة واحدة وعاش حتى رأى عصر الصواريخ . وكتب وكان مصر يحكمها « كرومر » ومات ومصر يحكمها احد ابنائها ... فلاح عربي هو عبد الناصر ، نبع من الامها وامالها ، وقادها الى الطريق الصحيح .

كل هذه التقلبات الكثيرة العنيفة كفيلا بان توقع اي عبقرى في اخطاء واضطرابات فكرية ... ولكن مثل هذه الاخطاء والاضطرابات لن تكون ابدا قادرة على اطفاء الجوانب المضيئة من عبقرية العقاد ... حتى بالنسبة لنا - نحن الذين كان من حظنا او من سوء حظنا ان نختلف معه بعنف اكثر من مرة .

رجاء النقاش

القاهرة

وحدها هي التي تخلق الشعر الاصيل ، والتجربة النفسية وحدها هي التي تجعل للشاعر شخصية مستقلة نحس بها من خلال شعره . وكانت دعوة العقاد قوية اصيلة ، وبدأت هذه الدعوة نفسها في معركة كبيرة بينه وبين امير الشعراء في ذلك الوقت : احمد شوقي . وكان لهذه المعركة دوي كبير ... وانتهت المعركة بفتح الطريق امام ادب جديد يختلف في قيمه واساليبه عن الادب الكلاسيكي .

ولقد كان العقاد بالاضافة الى ذلك كله صاحب ثقافة موسوعية ، فقد الم بكثير من العلوم والمعارف ، واصبحت كتبه جامعة كبيرة لابناء الشعب . لقد كتب في الادب وكتب في التاريخ وكتب في الفلسفة ، وكتب في الاديان ، وكتابه في كل هذه الفروع كتابة عميقة ذكية ، تمتاز بالشمول والثقافة الواسعة .

- وكان للعقاد موقف في السياسة ، فقد كان وطنيا مخلصا ... بمعنى انه فهم القضية الوطنية ، اي تخليص الوطن من الاستعمار الاجنبي ولكنه لم يستطع ان يفهم بصورة واضحة القضية الاجتماعية ... اي تخليص المجتمع من الاستغلال والسيطرة الاقتصادية من جانب فئات قليلة محدودة . ولذلك كان العقاد ابنا بارا من ابناء ثورة 1919 فسي عصر . فقد كانت هذه الثورة تهدف بالدرجة الاولى الى تحرير الوطن قبل تحرير المواطن من الاستغلال الاقتصادي بالذات .

وفي معظم كتب العقاد لا نجد اثرا كبيرا للقضية الاجتماعية ... مثل ذلك الاثر الذي نجده عند سلامة موسى او عند طه حسين . ولذلك اختلف العقاد مع كل المفكرين اليساريين اختلافا عنيفا . فقد اختلف مع الشيوعيين ، ومما جعل هذا الاختلاف مريرا ان الشيوعيين العرب كان موقفهم منذ البداية استنفازيا من العقاد ، ولم يحاولوا ان يدخلوا معه في حوار هادىء معقول ، واتهموه بالخيانة وما الى ذلك من اوصاف حادة ، بل لقد بلغ الامر ان وصلته تهديدات حقيقية بالقتل من بعض الشيوعيين . ولم يستطع الشيوعيون ابدا ان يضعوا العقاد في ميزان

صدر حديثا في

سلسلة القصص العالمية

والحلقة الثانية

الحلقة الاولى

قَصَصُ كَامُو

قَصَصُ سَارتر

في كتاب واحد يضم : الغريب - الزوجة الخائنة - الجاحد - اليكم - الضيف - جوناثان - الحجر الذي ينبت

في كتاب واحد يضم : الجدار ، الغرفة ، ابروسترات - صميمية - صداقة عجيبة

ترجمة

عائدة مطرجي إدريس

تفلا عن الفرضية

الدكتور سميل إدريس

الثنى ٤ ليرات لبنانية

الثنى ٣٥٠ ق.ل

منشورات دار الآداب